14- الرسائل الأدبية

تمهيد:

يرى بعض الدارسين أن الرسالة من فنون النثر التي مهدت لظهور المقالة، في حين يفصل البعض بينها وبين هذه الأخيرة، ذلك لأن الرسالة لها خصوصياتها التي تميزها عن فن المقالة، إذ أنها مشتقة من الفعل رَسَلَ وتحتمل معنى التوجيه، وهذا يستدعي توافر عناصر أو أطراف في المراسلات هي المرسِل، والمُرسَل إليه ونص الرسالة.

والذين ربطوا بين المقالة الحديثة وفن الرسالة وهو قديم انطلقوا من فكرة أن الرسالة قطعة نثرية تبحث هي الأخرى في غرض ما، قد يكون في الأدب أو في غيره من أغراض العلوم، مثل (رسالة الغفران) لأبي العلاء المعري ، و(رسالة الصحابة) لابن المقفع، و(رسالة التربيع والتدوير) للجاحظ.

أنواع الرسالة وموضوعاتها:

إذا نظرنا في طرفي الرسالة أعني منشئها ثم متلقيها، فإن ذلك يطرح فكرة تنوع الرسائل، وعلى هذا الأساس قسمت الرسائل إلى **ديوانية**، وأخرى **إخوانية**، فالنوع الأول وهو رسمي يصدر من دواوين الدولة ومثالها رسائل الخليفة عمر بن الخطاب إلى واليه على مصر عمرو بن العاص، والرسالة الإخوانية عادة ما تتبادل بين الأصدقاء.

ومهما اختلفت أنواع الرسائل، فإن الذي يعني الدارس الأدبي هو تلك الرسائل التي توافرت على قدر من الجمال وحسن التعبير مما يؤهلها لأن تكون فنا أو جنسا أدبيا «وتتميز الرسالة الفنية من بين ألوان النثر الفني الأخرى بالمرونة الفنية والأسلوبية التى تتيح لمنشئها مجالا واسعا لإظهار مقدرته على التفنن في أسلوبها والارتقاء به إلى درجة تجعلها شعرا منثورا، ذلك أن تلك المرونة تسوغ للرسالة الفنية قبول خصائص الشعر من خيال وتصوير وتعبير عاطفي وعناية بالزخارف المعنوية واللفظية عدا الوزن والقافية».

وعادة ما تكون الرسائل الإخوانية ذاتية ذات بعد عاطفي واجتماعي تحمل **موضوعات** وأغراضا معينة كالمدح، والعتاب، والشوق، والاعتذار، والتهنئة، والتعزية، والشكوى، والذم والهجاء.

أقسامها:

تنقسم الرسالة إلى ثلاثة أقسام أو أجزاء هي الصدر والغرض والاختتام:

أما **الصدر** أو الاستفتاح فهو ما يبدأ به الكاتب رسالته وعادة ما تستهل الرسالة بالبسملة، أو الحمدلة أو السلام والتحية، ويذكر فيها اسم المرسِل و المرسَل إليه، ويحسن التخلص والانتقال من الصدر إلى الغرض.

و**الغرض** أو ما يسمى المتن فهو الذي من أجله كتبت الرسالة، ويتوخى فيه حسن العرض والتقديم وجمال التعبير واختيار اللفظ من أجل التأثير في المتلقي (المرسَل إليه)

و**الاختتام** أو الانتهاء إذ عادة ما تنتهي الرسالة بالدعاء والسلام.

أمثلة من الرسائل في العصر الحديث:

من كتاب الرسالة الإخوانية في بدايات العصر الحديث عبد الله فكري، والشيخ محمد عبده، وحافظ ابراهيم، وحفني ناصف، وابراهيم اليازجي...

فمن رسائل حافظ ابراهيم ما كتبه إلى الشيخ محمد عبده حين أهداه ترجمته للجزء الأول من كتاب (البؤساء لفكتور هيجو):«إنك موئل البائس، ومرجع اليائس، وهذا الكتاب -أيدك الله- قد ألم بعيش البائسين، وحياة اليائسين وضعه صاحبه تذكرة لولاة الأمور، وسماه كتاب البؤساء، وجعله بيتا لهذه الكلمة الجامعة، وتلك الحكمة البالغة (الرحمة فوق العدل) ».

وقد أجابه الشيخ محمد عبده برسالة تعد تقريضا لعمله، ومدحا له: «لو كان لي أن أشكرك لِظن بالغتَ في تحسينه، أو أحمدك لرأي لك فينا أبدعتَ في تزيينه، لكان لقلمي مطمع أن يدنو من الوفاء بما يوجبه حقك، ويجري في الشكر إلى الغاية مما يطلبه فضلك، لكنك لم تقف بعرفك عندنا، بل عممت به من حولنا، وبسطته على القريب والبعيد من أبناء لغتنا».

ولا يخفى على القارئ اعتناء الكاتبين بتزيين اللغة بالسجع والجناس والطباق، بل يذهب كتاب الرسائل إلى تضمين رسائلهم شيئا من الشعر.

ومن الرسائل التي كان يتبادلها الأدباء نقتطف هذه القطعة من الرسالة الموجهة من العقاد إلى طه حسين، وكان كل منهما كتب عن أبي العلاء المعري:

« حضرة الأستاذ القدير الدكتور طه حسين

أشكر لك ثناءك واهتمامك وأبادلك التحية مدحا وقدحا بالصاع صاعين وبالباع باعين! وأعجب بشجاعتك في تقريظ كتابي ونقده في صحيفة "السياسة" وإن كنت أسأل نفسي: هل هي شجاعة حقا!!».

وإن كانت هذه القطعة من رجل أديب ناقد هو العقاد إلى رجل أديب ناقد هو طه حسين، وموضوعها يدور حول مناقشة أدبية نقدية، لذلك فهي تميل إلى روح النقد والموضوعية، والتهجم والتعريض حينا آخر، فإن الرسائل التي كانت مي زيادة طرفا فيها كانت أكثر دفئا وحميمية، وأكثر نزوعا إلى العاطفة، فقد سافر العقاد إلى لبنان ولما يمض على سفره أيام، فكتب إلى مي التي تركها بمصر مشتاقا يشكو ألم الغربة والفراق: «لقد أصبحنا بديلين: أنت في مصر وأنا في لبنان، ولكننا شريكان في وطن كبير واحد هو الوطن العربي. وإذا كان كل منا نازح عن داره إلى دار صاحبه، فإن حبنا قد ربط ما بين الدارين برباط وثيق» ، كما ضمن العقاد رسالته أبياتا من الشعر كعادته، بل إن من رسائله ما كان شعرا خالصا، وكان من الرسائل التي ردت بها مي على رسالة من رسائل العقاد الشعرية قولها:

«[...] إنني لا أستطيع أن أصف لك شعوري حين قرأت هذه القصيدة، وحسبي أن أقول لك إن ما شعرت به نحوك هو نفس ما شعرت به نحوك منذ أول رسالة كتبتها إليك وأنت في بلدتك التاريخية أسوان، بل إنني خشيت أن أفاتحك بشعوري نحوك منذ زمن بعيد[...] إن الحياء منعني، وقد ظننت أن اختلاطي بالزملاء يثير حمية الغضب عندك، والآن عرفت شعورك وعرفت لماذا لا تميل إلى جبران خليل جبران».

وما دامت رسالة مي إلى العقاد ساقتنا إلى جبران خليل جبران، فإن الرسائل المتبادلة بين هذا الأخير وبين مي قد أغنت الأدب الحديث بكم وافر من هذا الفن، ورسمت لعلاقة أدبية تحولت إلى صداقة، ثم سرعان ما تطورت إلى حب كبير، أحب جبران في مي الحبيبة والأخت والأم والوطن الذي اغترب عنه، ولعله يحسن أن نورد قطعة من رسائله إليها:

« نيويورك في 7 شباط 1919

عزيزتي الآنسة مي.

هل تعلمين يا صديقتي أنني كنت أجد في حديثنا المتقطع التعزية والأنس والطمأنينة، وهل تعلمين بأنني كنت أقول لذاتي هناك في مشارق الأرض صبية ليست كالصبايا قد

دخلت الهيكل قبل ولادتها ووقفت في قدس الأقداس فعرفت السر العلوي الذي تخفره جبابرة الصباح ثم اتخذت بلادي بلادا لها وقومي قوما لها، هل تعلمين بأنني كنت أهمس هذه الأنشودة في أذن خيالي كلما وردت علي رسالة منك؟».

ومما كتبت مي إلى جبران في أوت عام 1921: «أريد أن تساعدني وتحميني، وتبعد عني الأذى ليس بالروح فقط، بل بالجسد أيضا.. أنت الغريب الذي كنت لي بداهة وعلى الرغم منك أبا وأخا، ورفيقا وصديقا.. وكنت لك أنا الغريبة بداهة وعلى الرغم مني أما، وأختا، ورفيقة وصديقة».

ولعله لا يخفى من خلال هذه النماذج التي سقناها لجبران ومي أن أدب الرسالة قد كان أكثر ارتباطا بالذات والوجدان، كما حافظ على حسن الصياغة ومرونة التعبير، إلا أنه تخلص من قيود السجع والمحسنات البديعية الأخرى التي أثقلته في بدايات العصر الحديث.